

شهود العيان على فتح الصليبين انطاكية

بقلم انور حاتم (دمشق)
دكتور في الادب من جامعة باريس

ملخص تاريخي

فتح انطاكية اول والمع موقعة فاز بها الصليبيون في اراضي الشام .
كان غادروا ديارهم افرنسين ، والمانيين ، وبلجيكين ، وايطالين ،
 بعد ان رن في كليرمون صوت البابا الافرنسي اربان الثاني الذي
 اعلن الحروب الصليبية بتأثير رهبان (Cluny) " حيث نشأ وتعلم . خرجوا
 من ديارهم ، والصعوبات تمرقل كل خطرة يحطونها في سيرهم نحو القدس ؛
 وكان قد سبقهم راهب بطرس الناسك برقة شخص الماني يدعى كوتيه
 Gauthier Sans Avoir يصحبها جماعات من المان وايطالين وفرنسين ، وكلهم
 قراء صالحين . وصل بطرس الناسك ورفاقه الى القسطنطينية في ٣٠ تموز عام
 ١٠٩٦ . وكان سفره بالرغم من ارادة البابا اربان الثاني . فهو اذا المسؤول ،
 مع القائدين الالمانيين كوتشلك والكونت ايمكو ، عن كل ما حدث انشا .
 تلك الرحلة التابعة التي انتهت في مرفأ على خليج نيكوميديا يدعى كيفوتوس

(١) لا نستطيع هنا ، لتبني المجال ، ان نبحت عن اصل الحروب الصليبية وكيفية
 تولدها . وقد كانت غايات البابا اربان الثاني من اعلاها عديدة : منها الدفاع عن سبهي
 الاندلس وايطالية الذين كانوا معرضين دوماً للتزوات العريضة بشغل المسلمين من تلت
 التزوات ، ومنها توحيد الكنيسة بين اراء اوربة المسيحية الذين كانوا يتقاتلون ، ومنها اعادة
 قبر السيد المسيح من ايدي المسلمين وتأمين حياة من يقصدونه من الشرقيين والبريين . راجع
 اقدم واكمل سيرة للبابا اربان الثاني في مجموعة مين : Dom Ruinart : *Vita Urbani II* ,
 (Migne, *Patrologia latina*, t. CLI, col. 160 sqq.)

Civetot يوم ٢٠ ايلول من السنة نفسها ، حيث انكسرت تلك الأثر الثالثة ، وتشتت شمالها ، بعد ان ذبح اكثر جنودها .
وفي نصف شهر آب من السنة ١٠٩٦ ، بدأت الجيوش المنظمة ترحل الى الشرق تحت قيادة ادميار دي مونتني ، ممثل البابا الاعلى ومطران مدينة الپوي ، Adhémar de Monteil, évêque du Puy فكان الصلة الكبرى بين القواد على اختلاف اوطانهم وتعاتهم . وقد انقسم الصليبيون الى اربع فرق : فالفرقة الاولى كان يقودها گودفروا دي بويون دوق لورين الجنوبية وافرانسي الشمال والشرق . اتجهت هذه الفرقة نحو وادي نهر الدانوب ، وبعد ان اجتازت هناريا ، اتصلت بالقسطنطينية .

وألفت الفرقة الثانية من جنود هوك شقيق ملك فرنسة ، وجنود روبر كونت الفلاندر ، وروبير دوق نورمانديا ، واتيان كونت بلوا وشارتر . عبروا جميعهم جبال الالب والمجروا من مرافي ايطالية الجنوبية الى البانية ومنها الى القسطنطينية .

والفرقة الثالثة كانت تضم رجال فرنسة الجنوبية ، وقائدهم اغني رؤسا . الصليبيين واكبرهم سناً ، وهو ريتون دي سان جيل Raymond de Saint Gilles المعروف عند العرب بصنجل^١ وهو كونت مدينة تولوز ، واحد اعداء عرب الاندلس . كان يفهم اللغة العربية ، وتطلعاً على اخلاق العرب وعوائدهم . سار برفقة المطران ادميار واتصل بالقسطنطينية بعد مواقع عديدة في بلاد اوربة الشرقية . وقد اخذ الكونت دي سان جيل على نفسه ان لا يعود ما بقي حياً الى فرنسة .

اما الفرقة الرابعة فكانت مؤلفة من زمان ثقيلة يقودهم يوهيسون

(١) كانت شهرة ريتون دي سان جيل واسعة عند العرب . وعلى اثر احتلال القدس مدحه بعض شعراء الاسلام بمصائد منها قصيدة مطنها :

نصرت بينك دين المسج فلكه . درك من صنجل !

وقد قُتل الشاعر ناظم تلك القصيدة .

Bohémond ، المعروف عند المسلمين ببيمند ، وابن اخته تشكريد .
 وفي شهر ايار من عام ١٠٩٧ اجتمعت كل الفرق في نواحي القسطنطينية .
 وكان على رأس البلاد البيزنطية امبراطور (بازيلوس) محتال حاول بعض
 المؤرخين عبثاً تبرير اعماله . فكان ، بالاشتراك مع بطرس الناسك ، العامل الاكبر
 على الخلاف الذي وقع بين الروم واللاتين . وكانت نية هذا البازيلوس المدعو
 الكيس كومنين ان يستعمل الماطفة الدينية التي انقاد اليها اللاتين ، في سبيل
 استرداد البلاد التي اقتصبها الاتراك من الروم . فما كان منه الا ان منع
 جيوش الصليبيين عن اجتياز البوسفور قبل ان يقسموا له بين الطاعة ، بعد ان
 قطع عنهم الزاد واحاطهم بجنوده وجواسيسه ، فاذعنوا لارادته ما عدا الكونت
 دي سان جيل وتشكريد .

وقد برهن الامبراطور الكيس كومنين على خيائه باول فرصة سنحت
 له . وذلك عند احتلال مدينة نيقية ، بعد حصار دام اكثر من خمسين يوماً
 (من ٦ ايار الى ٢٦ حزيران) . وكان الامبراطور اتنا . هذا الحصار قد تمكن
 بواسطة جواسيسه ، من الاتفاق مع سكان المدينة ، فسلموه القلعة . حينئذ
 منع البيزنطيون جنود اللاتين من الدخول الى نيقية التي حينما وقعت تحت حكم
 الروم كان يحكمها امير تركي توفي في عام ١١٠٧ يدعى قنچ ارسلان ابن
 سليمان .

ترك الصليبيون نيقية ، واعلام البازيلوس ترف فوقها ، وترحلوا في طرق
 آسية الصغرى ، وفتحوا مدناً عديدة اهمها طرسوس ، واذنة ، ومرعش ،
 وماميسترا ، واورفا (او الرها) . وقد احتل اورفا بنفوسين ، وتزوج بابنة احد
 كبار الارمن المدعو تفتوذ ، واسبس اول مملكة لاتينية في الشرق . اخيراً
 وصل الصليبيون امام انطاكية في العشرين من شهر تشرين الاول عام ١٠٩٧ .

انطاكية ا وصلوها بعد الكدّ والمنا . وبعد ان تركوا اكثر من نصف
 مليون جندي امواتاً على طوق اوربة الشرقية وآسية الصغرى . بلقوا انطاكية
 بعد ان تلغوا اياماً عديدة في جبال طوروس ، تلك الجبال الجهنمية ، كما دعاها
 احد المؤرخين ، حيث قاسوا الاهوال من جوع وعطش وتعب . وقد فشت فيهم

الامراض وقتك بهم مناخ تلك النواحي الردي . وهلكت خيرهم ، فاضحوا
 يقطنون الجبال والادوية والصخور حفاة لا يستطيعون النهوض اذا سقطوا .
 انطاكية ا كم تمثلت لهم تلك المدينة في احلامهم ، وهي المدينة « الملوكية » ،
 مهد الفن في عهد اليونان والذ مقام شرقي لسلاطين الرومان ، مدينة مار بطرس
 وعاصمة النصرانية قبل رومة ا

احتل الصليبيون انطاكية بعد مواقع عديدة دامية ما عرف تاريخ القرون
 الوسطى لها نظيراً . فكان لانتصارهم صدى عظيم في الشرق والغرب . وقد
 ايقن الجند من تاريخ هذه المواقع بان اصل تلك الحروب المهام الهي ، وان
 القائد الاكبر للجيوش هو خالق البشر نفسه . فتكاثر الرزي والمجائب ،
 وجادت قريحة الشعراء . فتفتوا بفوز الصليبيين باللاتينية ، وبلغة فرنسة الشمالية
langue d'Oil ، وبلغة الجنوب *langue d'Oc* وانتشرت اناشيدهم في الغرب ،
 وقد آلت بعد الانتصارات بقليل من الزمن . وتبع الشعراء المؤرخون قاطنوا
 بذكر المواقع ، وبلدح القواد . ففرقت الحقيقة تحت امواج الاشاعات ، وغدا من
 الصعب كثيراً على المؤرخ التزيه التفريق بين الحقائق والاهام ، ولم يبق عليه الا
 فحص آثار من شاهد عياناً احتلال انطاكية .

مؤرخو العرب

ليس بين مؤرخي العرب من شاهد عياناً احتلال انطاكية ، وقد فاجأ
 الافرنج مسلمي الشرق ، وهم لاهون بحاربة بعضهم بعضاً ، ودأب كل من
 الامارات السورية مقاومة جاريتها . ولم يكن امراء الاسلام يترقموا زحف
 الصليبيين الى بلادهم . وهذه علامات الدهشة بينة ظاهرة في التواريخ الاسلامية
 التي كتبت عن الزحف الصليبية الاولى ، حتى ما كتب منها بعد تلك الزحفه
 بقرن او بقرنين . والتواريخ العربية القديمة التي تكلم عن هذه الزحفه قليلة
 الفائدة اتت بعد الحوادث بزمن طويل . على انه يستثنى من المؤرخين ابن
 الاثير وكال الدين :

ولد ابو الحسن علي بن محمد عز الدين بن الاثير في اليوم الرابع من

جمادى الاولى عام ٥٥٥ هـ (١٢ ايار ١١٦٠) في جزيرة بني عمر على الضفة اليسرى من نهر الدجلة . وتوفي في الموصل عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢) . وقد ترك بين مؤلفاته العديدة كتابين لها اهمية كبيرة في ما يتعلق بالحروب الصليبية وهما « الكامل في التاريخ »^(١) ، و« تاريخ الدولة الاتابكية »^(٢) . وابن الاثير مؤرخ بعيد عن التحيزات الانشائية دأبه اظهار الحقيقة (او ما يمتدحه حقيقة) . ففي تاريخه تبيّن لنا الاتقسامات القاتلة التي حصلت بين المسلمين ، وحالة البلاد الشامية عند وصول الصليبيين ، وما حلّ بامراء الشرق تحت حكم الافرنج . وفي «الكامل» بعض اخبار مهمة عن فتح انطاكية ، وفوز الافرنج على كيوقا ، صاحب الموصل ، لا نجدها في سواه .

اما كمال الدين ، ابو حفص عمر بن ابي جراحة العقيلي المعروف بابن المديم ، فهو حلبي الاصل . وله كتابان مشهوران في تاريخ وطنه حلب ، الاول منها معجم كبير عن مشاهير الشهباء عنوانه « بنية الطلب في تاريخ حلب »^(٣) . والثاني معروف بين المستشرقين تحت عنوان « زبدة الحلب من تاريخ حلب »^(٤) ، وهو مرتب على السنين الى السنة ٦٤١ هـ . توفي كمال الدين في السنة ٦٦٠ هـ اي ١٢٦١ ميسية . وفي تاريخه حوادث كثيرة كان يستحيل على مؤرخي

(١) طالعنا هذا الكتاب في الطبعة الكاملة التي نشرها المستشرق نوربرغ في مدينة ليدن ، وهي تحتوي على اربعة عشر مجلداً .

(٢) نُشر تاريخ الدولة الاتابكية في مجموعة مؤرخي الصليبيين ، في القسم الثاني من المجلد الثاني ، ص ١-٣٧٥

(٣) في المكتبة الوطنية في باريس (غرفة المخطوطات) مخطوط يتوي على قسم من « بنية الطلب » . يبدأ باسم : اسحاق بن منصور ، وينتهي باسم : امين بن عبد الله الاموي . وهو موضوع تحت رقم ٣١٣٨ . وقد نشرت قطع من هذا المخطوط في مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين ، في المجلد الثالث .

(٤) يوجد نسخة من « زبدة الحلب » في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ١٦٦٦ . وقد عرف هذا الكتاب ، او استعمله ، او ترجمه ، عدد كبير من المستشرقين اولهم الراهب الدومينيكي دوم برترو الذي كان يجمع مواد لتاريخ الصليبيين في القرن الثامن عشر ، ثم تبعه سيلستر دي ساسي ، وفيلكن ، وريبنو ، وفرستنج ، ودفرمري ، ومولر ، وبلوش ، وغبرم . ونشر قسم من هذا التاريخ في مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين : المجلد الثالث .

الافرنج الاطلاع عليها ، وهو واقف على كل ما جرى في شمالي سورية في عهد المملكة اللاتينية المقدسية .

غير العرب من المؤرخين الشرقيين

وقد تكلم عن الحروب الصليبية ، وعن احتلال انطاكية خاصة ، فضلاً عن مؤرخي العرب ، مؤرخون سريانيون وارمن وبيزنطيون . واشهر من كتب عن ذلك العهد من البيزنطيين الاميرة آنا كومنينيا (١٠٨٣ - ١١٤٨) ابنة الامبراطور الكيس البندي سبق ذكره . وقد رأت بعينها جيوش الافرنج تحيط بأسوار القسطنطينية . وكتبت كتابها الذي دعت «الكياده»^١ لا للدفاع عن والدها فحسب ، بل تعظيمه وتمجيدِه وتخليد اعماله التي جعلته بنظرها بطلاً يضاهاى ابطال هوميروس . فلهذا السبب لا يحق لنا ان ننتد الى اقوالها ، وهي خالية من تلك التزاهة التي يجب ان يتعمأ بها المؤرخ قبل كل شيء . ، عدا انها كانت صغيرة السن عندما اجتاز الصليبيون القسطنطينية وخانتها حافظتها لما باشرت الكتابة ، ولم ترَ بعينها فتح انطاكية بل روت ما سمعت في بلاط ايها ، وقد سمعت كثيراً من الاشاعات التي لا اصل لها . وكتبت الالكياذ بين السنتين ١١٣٧ و ١١٤٠ اي اربعين عاماً ، على التقريب ، بعد الحوادث التي تكلمت عنها .

يُستتج من ذلك البحث انه اذا اردنا ان نفقش عن الشهود العيانين فلا يبقى لنا الا الافرنج . وبين الافرنج ثلاثة مؤرخين معروفين شاهدوا عياناً حروب الزحمة الصليبية الاولى .

مؤرخو الافرنج

اولهم اسمه فوشه دي شارتر (Foucher de Chartres) . ولد في مدينة شارتر ، عام ١٠٥٨ ، وكان كاهناً فيها . رافق الى سورية روييد دوق نورمنديا ،

(١) احسن طبعة لهذا الكتاب هي طبعة رفرشيد (ليبسيك عام ١٨٨٤)

واتيان كونت مدينة تي بلوا وشارتر ، وشاهد كل ما جرى بين قواد اللاتين والامبراطور الكيس ، واشترك في احتلال نيقية وفي اغلب المواقع التي جرت في آسية الصغرى . ولكنه لم يحضر حصار واحتلال انطاكية ، لانه رافق بندوين اخا گودوفروا دي بويون الى مدينة الرها ، وكان كاهنه الخاص . ولما ملك بندوين على الرها وتزوج بارمنية بعد وفاة امراته ، ترك عنده فرشه دي شارتر . وبعد وفاة بندوين عين فرشه محافظاً لكنيسة القبر المقدس سنة ١١١٨ . ويقف تاريخه عند السنة ١١٢٢ ، وعمره اقترب عندئذ من السبعين . كان فرشه المؤرخ الرسمي لاول ملوك مملكة القدس اللاتينية ، وغير شاهد على كل ما جرى لبندوين في الرها ، وعلى مواقعه في آسية الصغرى ، وعلى علاقاته مع الارمن والروم والمسلمين ، وعلى الحوادث التي جرت في عهد ملكه في القدس وعهد بندوين الثاني .^(١)

والثاني رينون داغيلر Raymond d'Aguilers واضع كتاب « تاريخ الافرنج الذين احتلوا القدس » . كان كاهناً قانونياً (chanoine) لكنيسة سيده الپري في مدينة پري دي دوم في منطقة اورثوسية . وعندما ترأس اسقف ادهيار جنود الصليبيين رافقه رينون داغيلر ، والتحق بجنود رينون دي سان جيل ، كونت تولوز ، واصبح رفيقه ومستشاره وكاهنه الخاص ؛ وكتب تاريخ الزحف الصليبية الاولى « ليكذب الاشاعات الشهيرة التي نشرها في القرب الجنود الجيئا . الذين هربوا من ساحة الحرب المقدسة ورجعوا الى اوطانهم » . وقد روى كل ما اتوا به من الاعمال اللامة . ووصف جهادهم وذكر العجائب التي انعم بها الله عليهم . ورينون داغيلر اكثر المؤرخين سذاجة ورقة ، خفيف الروح ، بسيط القلب ، قوي العقيدة ، يتحدث مراراً عن التوسط الالهي في المواقع وظهر القديسين بين صفوف المقاتلين ، واكتشاف الحربة المقدسة في كنيسة مار بطرس^(٢) بانطاكية . وقد شاهد مصنه كل ما وقع من المارك في

(١) راجع تاريخه في مجموعة مؤرخي الصليبيين المبريين ٣ : ٢٠٠ - ٢١٥

(٢) روى بعض المؤرخين المسلمين اكتشاف الحربة المقدسة . وشبه ابن الاثير ، قال : « وكان منهم (اي مع الافرنج) راهب مطاع فيهم وكان دامية من الرجال يتعد بذلك بطرس

سبل احتلال انطاكية واستلاكها ، واشترك في كل هذه المارك . نشهاده صادقة ، وقد روى جميع الحوادث باخلاص .

اما المؤرخ الثالث فلم يذكر اسمه وقد ترك كتاباً عنوانه « ملاحم الافرنج والقدسين الآخرين »^١ وهو اقدم تاريخ كتب عن الرحفة الصليبية الاولى ، ومؤلفه بدأ باذنه في المسكر في الوقت الذي كانت تجري به الحوادث ، حتى انه يتكلم احياناً بصيغة الحاضر ، وحياناً بالمتبعل عن المراتع التي يُتَظنر انتشائها . وكان هذا الجندي المؤرخ من رجال بيئد القائد الصقلي ، اجتاز البوسفور برفقة تنكريد ابن اخت بيئد ، دون ان يتأخر في القسطنطينية ، واشترك في احتلال نيقية ومواقع انطاكية مع جنود بيئد . ويتهى تاريخه بعد موقعة عسقلان (١٢ آب ١٠٩٩) . ويظهر انه من سكان ايطالية الجنوبية ، ويمثل الطبقة الوسطى من جنود الصليبيين . وقد روى ما شاهده بكل دقة . وفي تاريخه حوادث كثيرة لا نجد لها ذكراً في كتب المؤرخين .

التاسك . وهذا حط لان مكتشف الحربة قروي مكين من احدى مقاطع فرنسة الجنوبية عاجز عن ارتكاب ايلة التي ينسبها له ابن الاثير بدون حق ، فقال لهم : ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقيان الذي بانطاكية وهو بناء عظيم . فان وجدتموها فانكم تظفرون وان تجدوها فالحلاك متحقق . وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعى اثرها وارم بالصوم والتوبة فقلوا ذلك ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم وسهم عاتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم اشروا بالظفر . « (راجع مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين : ١٩٥ : ١) وذكر البابا باسكال الثاني اكتشاف الحربة المقدسة في الكتاب الذي هذا به الصليبيين المرسل في شهر ايسار من السنة ١١٠٠ (Mansi, Concilia, II, 979)

١) *Gesta Francorum et aliorum Hæreticorum* . كان يطلق في الغرب اسم « القديس » على الحاج الذي زار القدس . - لهذا التاريخ طبعة جديدة ، غير المنشورة في مجموعة مؤرخي الصليبيين ، نحن مفيثون جا للاستاذ برجييه :

Louis Bréhier, *Histoire anonyme de la première Croisade* [*Classiques de l'Histoire de France*. Paris, 1924]

ملحمة انطاكية

اولئك هم المؤرخون الذين لم يشك احد في اشتراكهم بالزحفة الصليبية الاولى. وقد عثرنا في يوم من السنة ١٩٢٩ ، على اثر شعري لم نكن نتوقع في بادئ الامر اهميته . وهذا الاثر محفوظ في باريس في ست نسخات خطية خمس منها في المكتبة الوطنية (تحت ارقام ٧٨٦ و ٧٩٥ و ١٦٢١ و ١٢٥٥٨ و ١٢٥٦٩) وواحدة في مكتبة الأرسنال (تحت رقم ٣١٣٩) ، وهو معروف بعنوان «ملحمة انطاكية» : *La Chanson d'Antioche*

لم نكن اول من اهتم بملحمة انطاكية . فقد نشر قسماً منها احد علماء اللغة الافرنسية القديمة في عام ١٨٤٨^{١)} . ولكن هذه الطبعة مشوهة بملووة بالاغلاط ، قديمة الاسلوب ، اكفى نشرها بلمصق تطع ، مختلفة من ملحمة انطاكية نقلها عن النسخات الخطية بدون نظام . ثم قام استاذ آخر ونظر في ملحمة انطاكية في اطروحة قدمها جامعة باريس عام ١٨٧٧^{٢)} . ولكنه لم يتمكن من فحصها الا فحصاً سطحياً اكفى فيه بنقد آراء . من تقدمه ، على كونه لم يتوفى لفهم اهمية ملحمة انطاكية التاريخية حتى ولا لقراءتها قراءة كاملة في المخطوطات . فجات الصحائف القليلة التي خصصها لدرس ملحمة انطاكية ضعيفة الاساس ، مخالفة للحقيقة الواقعة ، متناقضة الاجزاء . فلا عجب اذا لم تنل ثقة المهتمين بدراسة الآداب الافرنسية في القرون الوسطى .

ولا اتيح لنا ان نفحص ملاحم الصليبيين وصلنا الى نتائج تختلف عما اتى به الاستاذان المذكوران اللذان اهما بملحمة انطاكية . وتبين لنا بعد ان فحصنا المخطوطات ان ملحمة انطاكية الاصلية اختفت ولا يُعرف لها اثر ، وقد جدها في اواخر القرن الثاني عشر شاعر من سكان فرنسة الشمالية اسمه غراندور

Paulin Paris, *Roman des douze pairs, la Chanson d'Antioche* - 2 vol. (1) in-8°. Paris, 1848, (chez Techener)

Pigeonneau, *le Cycle de la Croisade et de la famille de Bouillon*, (2) in-8°. S' Cloud, 1877.

دي دوي Graindor de Douai ومزجها مع غيرها من الملاحم التي أنفت في سورية لتسجد افرنج الشام ، وتخذ اعمالهم كملحة القدس La Chanson de Jérusalem وملحة الاسارى La Chanson des Chétifs . والآن لا نعرف ملحة انطاكية الا بقالبها الجديد ، اي غير مستقلة ، بل محفوظة في النسخات الخطية كقطعة صغيرة من الملاحم الصليبية التي سبكاها الشاعر المجدد غراندور دي دوي في كتاب واحد لا يقل عدد ابياته عن الحسين الفأ .

حلنا ملحة انطاكية وقابلناها بذكرات مؤرخي الرحلة الصليبية الاولى من مسلمين وافرنج ، فرأينا ان هذا الاثر الشعري الحماسي هو بالحقيقة خير وثيقة تاريخية لاحتلال انطاكية ، ومولفه الاصلي يدعى ريشار الحاج^(١) . Richard le Pèlerin ، ولم يحفظ لنا التاريخ سوى اسمه . ويظهر من ملحته انه بلجيكي الاصل ، او من سكان فرنسا الشمالية ، وقد تجند تحت راية الكونت روبر دي فلاندر وبلغ القسطنطينية عن طريق ايطاليا الجنوبية ، ورافق القائد تنكريد في غزواته باراضي آسية الصغرى . وكان ريشار بمترباً مع الشعب حين جرت الحملات الشديدة حول انطاكية . فانت اشعاره صدى لمواظف الشعب وتضحياته وآماله وایمانه . والمجدد حفظ لنا عدة ابيات تشهد بوجود ريشار بين المقاتلين حينما اشتعلت المواقع واشتد القتال . وعدا هذه الدلائل ، فقد عثرنا على شواهد اخرى تثبت اشتراك ريشار في الرحلة الصليبية الاولى اهما شهادة وردت في المجموعة الاسبانية المعروفة تحت عنوان^(٢) . La Gran Conquista de Ultramar التي دوي فيها اعمال الامبراطور شارلمان واعمال الصليبيين واساطير كثيرة تتماق بتاريخ فرنسا واسبانية في القرون الوسطى . وتقف الحوادث التي تروياها هذه المجموعة في السنة ١٢٧١ ، وقد عرف مؤلفوها ملحة انطاكية الاصلية وذكروا اسم ريشار الحاج عندما تحدثوا

(١) اطلق المؤرخون الماصرون للرحلة الصليبية الاولى لقب الحاج (pèlerin) على كل من تجند ليحارب في سبيل القبر المقدس .

(٢) راجع هذه المجموعة ، من ٢٦٩ من المصود الاول في طبعة كايثيغوس :

La Gran Conquista de Ultramar., édit. Gayangos. Madrid, 1858

عن احتلال مدينة انطاكية ، وشهدوا بوجود ريشار بين صفوف المقاتلين .
وعثرنا على شهادة اخرى تمد من اوضح الدلائل على بعض المعاديات التي
انتشرت في الحروب الصليبية ، وهي اهتمام القواد بشهرتهم الشخصية وتعلتهم
بسمعتهم بين ابناء اوطانهم . فمنهم من كان يدفع للشراء او للمؤرخين اموالاً
طائلة حتى يذكروا اعماله في اراضي الشام ، ويجهروا عنها ابناؤا القرب . ونحن
مدينون بالشهادة المذكورة الى احد صغار مؤرخي القرن الثالث عشر المسدور
لامبر من سكان مدينة اردر^١ Lambert d'Ardres ، واردر مدينة صغيرة
في شمالي فرنسا كتب لامبر تاريخ حكامها ، ومنهم حاكم يدعى ارنول الشيخ
رافق روبر دي فلاندر وجاهد الى جانبه في مواقع نيقية وانطاكية واورشليم .
ولم يذكر ريشار الحاج اسمه بين القواد ، وحتى ولا بين الجنود . هذا ما دعا
المؤرخ لامبر الى ان يحمل على ريشار حملة عنيفة ويتهمه بالبخل والسفالة وحب
المال والملق ، ويذكر السبب الذي منع ريشار، في نظره ، عن ذكر ارنول وتمجيد
اعماله . وهذا السبب يتحقق الذكر على قول لامبر^٢ : " لما حاصر الافرنج انطاكية
نقصت الذخائر واشتد الفسلاء وساد الفقر ، حتى ان الجنود غدوا حفاة ومنهم
شاعرنا ريشار الحاج . فا كان منه الا الذهاب الى مواطنه ارنول الشيخ طالباً
منه ان يقدم له هدية « زوج احذية قرمزية لامعة » رآها معه^٣ . فابى ارنول تقديم
هذه التحفة السنية الى مغنٍ ذليل . فحينئذ انتقم ريشار وامتنع عن ذكر ارنول
في ملحته ، محاولاً ان يمد بساط النسيان على اعماله اللامعة .

معلومات ملحمة انطاكية

واذا اردنا ان نورد المعلومات الجديدة التي حفظتها لنا ملحمة انطاكية

(١) Lambert d'Ardres : *Chronicon Gbisenense et Ardensense* Edit. Grodefroy-
Méniglaize. Paris, 1855

(٢) راجع القصة التي ذكرناها باصلها اللاتيني في كتابنا :
Les poèmes épiques des Croisades Paris, 1932, p. 336

(٣) يقول الاصل اللاتيني : *duas caligas scarlatinas*

(والتي لا زهاها في كتب المزرخين الآخرين) عن الرحلة الصليبية الاولى ،
فيمكننا ان نقسم الملحمة الى ثلاثة اقسام :

١ من خروج الصليبيين من بلادهم الى وصولهم لانطاكية

اضعنا افتتاح ملحمة انطاكية كما كتبها ريشار الحجاج ، ولم يبق لنا الا ما
زاده المجدد غراندور . وقد وضع مقدمة جديدة ليلبسك ملحمة انطاكية مع
ملاحم اخرى ، وليجتش شبان الغرب على التجند للدفاع عن الاراضي المقدسة .
ومقدمة غراندور تبدي بوصف المسيح مصلوباً بين اللصين ، وتقول : لما استجد
الاصالح بالسيد المسيح اجابه : « اعلم يا بني ان ايام نصري لم تأت بعد .
وعندما يمضي الف عام على يومنا هذا ، سير شمب قوي تقي من بلاده ،
ويحتل هذه الديار بسيفه ، وينتقم من الاسم التي كانت سبب آلامي . وهذا
الشمب المبارك هو الشمب الافرنسي . »

وبعد هذه المقدمة الشعرية المختلقة ، يقص الشاعر غراندور على سامعيه سفر
بطرس الناسك الى القدس ، وزيارته القبر المقدس ، ومقابله بطريرك القدس ،
وظهور المسيح امامه عندما رقد في كنيسة القبر المقدس ، وقد طلب منه يسوع
المسيح ان يذهب الى الغرب ويقابل ملك النصارى ويبلغهم دنو الساعة التي
لاجلها ضحى بنفسه في سبيل البشر ، فالكفر سائد في البلاد التي ولد وترعرع
وعاش وصاب ودفن فيها . وهذه البلاد بلاده . فنهض حالاً بطرس الناسك ،
ورجع الى فرنسا ، وجمع جيوشاً عظيمة وزحف الى الشرق .

طبعاً كل هذه الاخبار حماسية ، لا تاريخية . والحقيقة ان بطرس الناسك
ما وصل الى القبر المقدس ، ولا الى فلسطين ، قبل الرحلة الصليبية الاولى .
ولم يكن القائد المطاع الذي صورّه بعض المؤرخين ، وما برح طول الرحلة
رفيق عامة الشعب ، وصديق الفقراء .

تفتتح ملحمة انطاكية الاصلية عند وصول الصليبيين امام القسطنطينية .
وهنا تبدي اهميتها التاريخية ، وقد بين لنا ريشار خيانات امبراطور الروم
الكيس ، واحتياله على قواد الصليبيين ، وقطعه عنهم الطعام . وريشار
المرزخ الوحيد الذي حفظ لنا الموقف الشريف الذي وقفه احد اقرباء الامبراطور ،



الرسم ١ : اماكن كبة : باب الحديد



الرسم ٣ : صورة قديمة مثل باب الحديد



الرسم ٣ : اظاكية : باب الفديس جرجس
(عن « Antioche » Jacquot, ١٩٠٤)

المدعو تاتيكوس، تجاه اللاتينيين، فهو الذي قدم لهم الذخائر والقوت اليومي، على الرغم من ارادة الكيسس، الى ان عبروا البوسفور . وقد سار برفقتهم على رأس فرقة مؤلفة من جنود الروم . وهذا الدور الذي مثله تاتيكوس مهم جداً . اذ لولاه لامت عدد كبير من الجنود جوعاً . وريشار الحجاج اكثر جرأة من بقية المؤرخين . فهو الوحيد الذي روى خيانة الكيونت اتيان دي بلوا في ضواحي نيقية، حيث هرب امام الترك ورمى عليه على الارض . وفي طرق آسية الصغرى، دون ريشار في ملحمة ذكر الحصار الذي وقع بين بدمدين وتنكريد، وذكر اشتراك النساء الافرنجيات في المواقع، وتضحياتهن في سيل ايانهن، والقتال الضيف الذي اشتمل في جسر الحديد بالقرب من انطاكية (بين انطاكية وحارم).

٢ حمار الصليبيين انطاكية

تتمدد الادلة على وجود ريشار بين صفوف المقاتلين منذ وصول الجنود الى اسوار انطاكية . وقد وصف لنا المجاعة التي انتشرت في معسكر اللاتينيين بصور وعبارات بليغة، وذكر لنا اسرار الاطعمة التي كان يقات بها الافرنج، وبين هذه الاطعمة فخذ الحمار وسعره خمسة دنانير . وقص علينا الاعمال الباهرة التي قام بها فرسان فرنسة الشاليس، ومنهم الفارس انكران دي سان پول Enguerrand de Saint-Pol، ورنبوكروت Raimbaut Creton، ورينو برکه Renaud Porquet، وهم من ابنا مقاطعة ريشار . فلولاه لما كنا استطنا ان نعرف ونقدّر شجاعتهم واقدامهم في الحرب، كما ان ريشار تجرأ وروى بعض الفضائح التي ارتكبتها المقاتلون ومنها اكل اللحوم البشرية . ولكن في ملحمة انطاكية، كما في كتب بقية المؤرخين، نقص مهم جداً وهو ان جميعهم سكتوا عن كل ما يتعلق بصاحب انطاكية، واكتفوا بذكر اسمه واسم والديه اللذين ذهبا لطلب النجدة من ملوك المسلمين وقد فشتنا لدى مؤرخي الاسلام وجمنا كل ما حفظوه لنا عن صاحب انطاكية، فاذا هو ياغي سيان التركاني . وما استطنا ان نعثر على تاريخ ولادته، ولا على المحل الذي ولد فيه . واول مرة رأينا له ذكراً في التاريخ هو في السنة ١٠٦٦ اذ كان

يهيئ الخطبة في قزوين (في فارس) باسم السلطان الساجوقى الب ارسلان ، وقد ساعده تتش بن الب ارسلان على الاستيلاء على انطاكية . ولما مات تتش التحق برضوان ابن تتش وزوجه بابنته ، وغزا برقته مدينة الرها وحاصرها . وحاول بالاتفاق مع رضوان احتلال دمشق التي كان يملكها دقاق شقيق تتش . ولكن وصول الافرنج حال دون هذه الماعي . ولما حاصر الافرنج انطاكية خاف ياغي سيان من النصارى الذين بها ، فابتدأ باخراج المسلمين وخدمهم من انطاكية ، وامرهم بحفر خندق في خارج المدينة . ثم اخرج في اليوم التالي نصارى المدينة لآكمال حفر الخندق ، وما كان معهم مسلم ، فاشتغلوا في الخندق الى العصر ، ولما ارادوا دخول المدينة منهم وقال لهم : « انطاكية لكم فهبوها لي حتى انظر ما يكون منّا ومن الافرنج . » فقالوا له : « ومن يحفظ اولادنا ونساءنا . » فقال : « انا اخلفكم فيهم . » فرجع النصارى واقاموا في معسكر الافرنج^(١) . ولما احتل الصليبيون انطاكية هرب ياغي سيان مع جماعة من اصحابه . وعند وصوله بالقرب من ارمناز ، ومعه خادم من غلمانه ، وقع عن ظهر فرسه . فحمله الخادم واركبه على ظهر الفرس ، فلم يثبت ، وعاد فقط مرة ثانية . وادركه حينئذ الارمن . فهرب الخادم وقتل الارمن ياغي سيان ، وحملوا رأسه الى الافرنج^(٢) .

بقيت الظروف التي احاطت باحتلال انطاكية سرية . وقد جرى بين بعض قواد الافرنج وحراس اسوار انطاكية تدابير ما عرف احد غايتها . وعقد قواد النصارى اجتماعات ما استطاع المؤرخون ولا الجنود ان يلمسوا بها ، وقد قال مؤرخ شاهد الوقائع عياناً : « لا يمكنني ان اقص كل ما فعلناه قبل استيلائنا على انطاكية ولا نستطيع احد ، اكليريكيّاً كان او علمانياً ، ان يكتب او يروي كيف جرت الامور »^(٣) . ومع هذا لم ترل رواية ريشار الحاج عن احتلال انطاكية اكل الروايات وادقها واقربها الى العقل . وسنأتي بما رواه مؤرخ حلب

(١) راجع ابن الاثير (طبعة تورنبورغ) ١٠ : ١٨٧

(٢) راجع كتابنا عن ملاحم الصليبيين ، ص ١٢٧ و ١٢٨

(٣) راجع طبعة بريجه ، ص ١٠١

كالم الدين بن العديم، قبل ان نشرع بتحليل رواية ملحمة انطاكية.
قال ابن العديم : « فلما كانت ليلة الخميس اول ليلة من رجب (٣ حزيران ١٠٩٨) واطأ رجل يعرف بالزرداد من اهل انطاكية وغلان له على برج كانوا يتولون حفظه وذلك ان ياغي سيان قد كان صادر هذا الزرداد واخذ ماله وغلته فحمله الحق على ان كاتب بيمند قال : انا في البرج الفلاني وانا اسلم اليك انطاكية ان أمتني واعطيتي كذا وكذا . فبذل له ما طلب وكنتم امره عن باقي الافرنج . . . وجمع بيمند القوامص (Comtes) المتقدمين عليهم وقال لهم : هذه انطاكية ان فتحناها لمن تكون ؟ فاختلفوا وكل طلبها لنفسه . فقال : الصواب ان يحاصرها كل رجل منا جمعة فن فتحنا في جمعة فهي له ففرضوا بذلك . ولما كانت نوبته دلى لهم الزرداد ، لصنه الله ، حبلاً فظلموا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضاً وجاروا الى الحراس فقتلوهم وتسلم بيمند ابن الاسكرت (Guiscart) وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصايح من ناحية الجبل فترهم ياغي سيان ان القلعة قد اخذت وخرج من البلد . »^{١١}

هذا ما قاله ابن العديم . وقد صدق في قوله ، عدا ما يتعلق باقتراح بيمند على ان يحاصر انطاكية كل قائد اسبوعاً كاملاً ومن يجتأها باسبوعه تكون له . والحقيقة ان القواد تركوا انطاكية لبيمند خوفاً من ذهاب الوقت سدى، ومن قدوم صاحب الموصل كيوقا الذي كان يهين جنوده لنجدة ياغي سيان . وانا نستخلص من رواية ابن العديم حادثين مهمين : اولهما ان الافرنج استطاعوا ان يفتحوا انطاكية بمساعدة احد المسلمين الذي كان يتولى حراسة برج من ابراج المدينة . والثاني ان هذا « الخائن » كان زراداً وقد خاب الافرنج بواسطة بيمند .

ولكن علاقات الزرداد (واسمه فيروز) بيمند بقيت سرية الى آخر ساعة . حتى ان اتيان دي بلوا هجر المسكر ورجع الى بلاده قبل سقوط المدينة بيوم واحد . ولو علم اقتراب النصر لما هرب . وما عرف المورخون تاريخ ابتداء

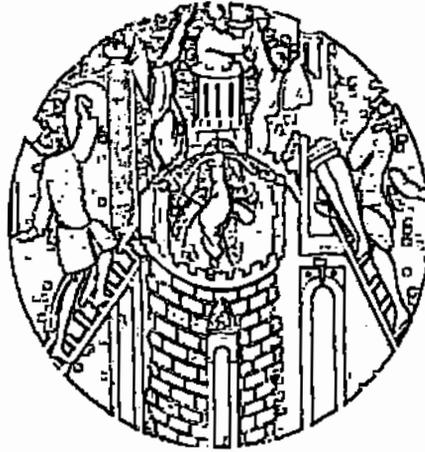
(١) مجرعة مؤرخي الصليبيين ، ص : ٥٨١

هذه العلاقات ولا سيما . فتم من زعم ان يمسند اسر في احدى غزواته ولداً صغيراً كان ابن الزراد فاعاده الى والده . فاراد الوالد ان يثبت معرفته الجليل فساعد الافرنج . ومنهم من زعم بان الزراد رأى في منامه المسيح ، او قديماً من القديسين ، ولما استفاق من غلته تنصر حالاً والتحق بالافرنج بعد ان سلمهم البرج . والحقيقة ان الزراد اراد ان ينتقم من ياغي سيان لانه صادر امواله ، كما روى كمال الدين ، وذلك وقت الحصار حيث وقت مجاعة عظيمة في انطاكية واكره ياغي سيان كل من جمع عنده حبواً على ان يضعها تحت تصرفه . . .

تكلم المؤرخون عن سقوط انطاكية . ولكنهم كسروا من الحوادث اسمها . والفضل لريشار الحاج ان كنا نحفظ الآن بياناً كاملاً عن كل ما جرى في ليلة ٣ حزيران من عام ١٠٩٨ ، حول اسوار هذه المدينة العظيمة^{١١} : لما الح يمسند على الزراد طالباً ان يسرع في العمل بموجب وعده ، بأنغ الزراد يمسند ان يجمع عساكره ويفعل كانه سيتقدم الى غزو الاراضي الاسلامية البعيدة عن انطاكية . ويمكنه هكذا ان يخفي نيته الحقيقية ، وفي الليل يزحف على انطاكية بغتة . وعين له ساعة يكون قد تهيأ فيها لتسليمهم البلدة . ولما اتى الليل واقرب وقت الميعاد استحضر الزراد سلاً طويلاً واتزله من اعلى البرج الى اسفله ، وحمل بيده مصباحاً ساطعاً ووجه نحو الافرنج لكي يروا السلم جيداً . وكان الزراد قد سلمهم احد اولاده وديعة . . .

الا ان الافرنج لم يسرعوا في تسلق السلم بجراً ، كما زعم المؤرخون . في ذلك الظلام الحالك ، وامام ذلك الرجل الذي خان دينه وبلاده ، وتجاه ذلك البرج العالي ، وذلك السلم الذي لم يكفل متانته احد ، ارتجف اشجع قواد الافرنج . فاراد رويبر دي فلاندر ان يحول الى يمسند شرف الطلوع على السلم في مقدمة الجيش فأجاب يمسند : « يا اخي ، لا تعب نفسك ولا تطل شرحك . فانا لا اتساق السلم ، ولو كان البرج كله من ذهب لاني لا احب ان اعرض نفسي للهلاك . » وفي الوقت ذاته كان الزراد يناديهم قاعاً طالباً منهم

١١ يتدعى ذكر سقوط انطاكية في المخطوط عدد ١٣٥٥٨ ، في الصفحات ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣



الرسم ٤ : صورة قديمة تمثل الصمود على البرج



الرسم ٥ : صورة قديمة تمثل المعركة بين الصليبيين والمسلمين
(عن " Antioche "، C^l Jacquot.)

الاقدام على علمهم ، او ارجاع ولده . ولما رأى روبري دي فلاندر الحالة التي وصلوا اليها ، ينس وبكى حزناً . . .
ولم يزل الافرنج مضطربين حاثين ، والوقت يمضي ، ولا يمكن لفرصة كهذه ان تعاد الى ان وصل گودفروا دي بويون ، فناداه روبري دي فلاندر قائلاً : « افلا ترى ، يا ابن عمه ، الرعب الذي وقع في قلوبنا . وما احد منا يقترب من البرج ؟ » فاجابه : « ما كنت اتوقع ذلك من الابطال . » ثم تضرع الى الله وطلب عونه واقرب من السلم . ولكن روبري دي فلاندر سبقه وقبض بيده على السلم وكاد يتلقه ، لو لم يوقفه صعلوك من سكان مقاطعة الفلاندر اسمه فوشه اليتيم . ولا بأس هنا ان نعرّب قطعة من الشر الافرنسي القديم كتبها ريشار الحاج في انطاكية بعد سقوط المدينة بايام قليلة ، قال :

ثم ادرك روبري دي فلاندر السلم وقبض عليه بيديه الاثنتين . . .
حينئذ هجم عليه فوشه اليتيم ، وانف ذراعيه حول جواربه .
- ولد فوشه في الفلاندر حيث يوجد فرسان شجمان ، -
وقال فوشه للكونت روبري : « سيدي اسع كلامي :
انت ابن القديس جرجس ، وهكذا يدعوك الناس ،
فاذا اضناك ستخسر خسارة عظيمة .
اما انا فاذا مت فلا احد يبكي ، لانني يتيم ؛
ساطلع على السلم ، سيدي النيل ، ويسوع يساعدي .
سح الكونت روبري كلامه ، ورفع يده عالياً ،
ودعور فوشه على الارض ، ورسم اشارة الصليب ،
وقطع اول درجات السلم .
كان الكونت روبري قد اخذته الغضب ،
وطلع فوق درجتين من السلم بسهولة .
ولكن فوشه اليتيم هجم ، وقبض عليه من جانبيه ،
وقال له : « سيدي روبري دي فلاندر ، انت لم ترل باسلاً
ولا يوجد بين القواد البلاء من هو اكثر شجاعة منك .
وان كان يجب عليك ان تموت ، فيحصل لنا ضرر عظيم .
وعندك ، يا سيدي النيل ، اراض واسعة يجب عليك ان تتولى حفظها .
ولك زوجة واولاد جعلك الله ييم .

اما انا فلا املك الا روحي التي سابلها ، وليس لي في الدنيا مطامع .
 فدعني اتسلق قبلك ، باسم روح القدس .
 فاذا مرت انا فوثني لا يضر احدًا وسيكون موثني في خدمة الله .
 في الجيش كثيرون افضل مني ، ويستحقون الكرامة اكثر مني . (١)

وسمح روبرت لفوشه ان يتسلق البرج امامه . فاستنجد فوشه بالله ، وبدأ بالطلوع ، ولحاقه بقية القواد . وبعد ان بلغ بعضهم البرج ، انقطع السلم ووقع من عليه على الارض قُتل فارسان . ولكن فوشه ورفاقه قتلوا حراس الاسوار وقتحوا ابواب المدينة التي سقطت بمدة وجيزة بايدي الافرنج .
 تلك هي رواية ملحمة انطاكية . ولا يمكن لمؤرخ ، من الآن فصاعداً ، ان يقصّ الزحفة الصليبية الاولى بدون ان يتعين بها . لان ريشار الحجاج هو الكاتب الوحيد الذي مثل لنا قواد ذلك الجيش العظيم رجلاً مثلنا يتألمون مثلنا ، ويخافون احياناً ، ويحارون ويكفرون ، ويمرضون . واورد لنا الاخبار التي تملك باحتلال انطاكية بكاملها ، وبدون تصنع ، وباخلاص لا يمكن لاي رجل كان ان يشكّ به .

٢ - حصار كبريقا انطاكية

احتل الافرنج انطاكية ووجدوا فيها من الاموال والاقوات ما شفى عليهم . ولكنهم ما استطاعوا ان يهناؤا بفوزهم . ففي اليوم الخامس من شهر حزيران هاجمهم عدو جديد بشخص صاحب الموصل قوام الدولة كبريقا . عرف كبريقا بوصول الافرنج الى اراضي الشام فجمع عساكره وقطع بهم الفرات ، وسار الى مرج دابق ، وقد اجتمع اليه هناك دقاق بن تغش صاحب دمشق ، والاتابك طنتكين ، وجناح الدولة صاحب حمص ، وارسلان تغش صاحب سنجار ، وسهان بن ارتق الذي ملك القدس وخسرها ، ووثاب

(١) المخطوط ١٢٥٥٨ : الورقة ٩١ ، الصفحة ٢ ، السرد الاول .

(٢) رأينا في المخطوطات : كبريقا ، وكبريقا ، وكبريقا ، وقربنا . ولا نعلم اي لفظ اصح . راجع ، بخصوص كل ما تركه لنا المؤرخون عن كبريقا ، كتابنا عن ملاحم الصليبيين ص ٢٠٢-٢٠٤ .

ابن محمود ومعه جماعة من البدر . ولما بلغتهم سقط انطاكية بيد الافرنج رحلوا جيهم الى انطاكية وحاصروها .

كان كبريوقا من ابطال ملاحم الصليبيين . وقد روث عنه ملحمة انطاكية عدة اخبار لا اصل لها في التاريخ منها محاورته مع امه الساحرة ، وكتابه الى السلطان السلجوقي بربارق الذي يتعهد فيه ان يكسر الافرنج . ويوجد ملحمة خدوصية محفوظة في المخطوط عدد ١٢٥٦٩ موضوعها اعتناق كبريوقا النصرانية . احدث حصار كبريوقا انطاكية تأثيراً عظيماً في عقلية الصليبيين . راصل سمعة كبريوقا بين الافرنج تلك الآلام التي قاسوها مدة حصار انطاكية ، والمجاعة التي فتكت بهم ، وكان ريشار ابلغ ممبر عنها . اشتد الحصار فمادوا يقاسون الاهوال التي قاسوها عندما حاصروا المدينة . ووقع ياس عظيم في جيش النصارى حتى ان عدداً كبيراً منهم بدأوا يهربون من انطاكية بواسطة حبال كانوا ينصبونها من فرق الاسوار فيفرون قاصدين البحر حيث يمكنهم ان يعودوا الى بلادهم . وقد اطلق الصليبيون على هؤلاء الجناء لقب البهلين (جمع بهلوان)

les funambules

وان ريشار الحاج يقص علينا ، كسائر المؤرخين ، رؤيا الكاهن التقي ، واكتشاف الحربة المقدسة في كنيسة مار بطرس ، وسقوط صاعقة بين صفوف المسلمين ، وبناء الصليبيين سوراً بين المدينة ومسكر كبريوقا ، والحريق الذي اشعله بيستد في انطاكية ، وقد هدم هذا الحريق اكثر من النفي بيت . ولما اشتد الحصار ، واشتدت المجاعة ، اراد الافرنج ان يفاوضوا كبريوقا فارساروا اليه بطرس الناسك مع جندي افرنسي يتكلم العربية . وقد اختلف المؤرخون في ذكر غاية هذه المفاوضات . قال ابن الاثير : « واقام الافرنج بانطاكية بعد ان ملكوها اثني عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه وتعتوت الاقوياء بدرابهم والنخفاء بالميتة وورق الشجر . فلما رأوا ذلك ارسلوا الى كبريوقا يطلبون منه الامان ليخرجوا من البلد فام يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجون الا بالسيف . » ولكن المؤرخين اللاتين زعموا بان غاية بطرس الناسك ورفيقه هي ان يطلب من كبريوقا ان يقلع خيامه ويهرب لان انطاكية مدينة نصرانية . واذا لم

يفعل فليقبل موقعة فردية او مبارزة تنحصر في بعض الاشخاص، فالمتصر منهم نوح النصر لامته . ويصعب علينا الآن ان نعرف حقيقة مهة بطرس الناسك . وبما لا شك فيه هو ان كبريوقا ظهر امام رسل الافرنج بسفاهة لا تطاق . وقد سببت هذه السفاهة استياء بقيّة امراء الاسلام حتى انهم اتفقوا على تسليته للافرنج ، واضروا في انفسهم القدر .

وروى ريشار الحاج وصول بطرس الناسك ورفيقه الى معسكر الاسلام . وذكر مقابلتها لكبريوقا ، ووصف لباسه . ونقل اقواله التي تدل على كبريائه ، وخطاب بطرس الناسك الذي لا يقل عجرفة عن جواب صاحب الموصل . ولما تأكد بطرس فشل مهمته ، رجع الى معسكر الافرنج واطلهم على جواب كبريوقا الذي يريد ان يقاتلهم باسرع حين . وطلب منهم ان يتجهأوا للخروج من المدينة ، وللهجوم النهائي . واراد كبريوقا ان يعرف اهمية جيش الافرنج فارسل اليهم جاسراً استطاع ان يطلع على سلاحهم وعددهم . ولما عرف كبريوقا استعدادهم ندم على رفضه اقتراح بطرس الناسك ، وحاول سدى ان يفتح سبيلاً لمفاوضات جديدة . وفي هذه الملحة يمكننا ان نقبس من ريشار الحاج معلومات جديدة ما حفظها سواه ، واهمها استشارة بيئند الشعب :

عرفنا ان بيئند غدا صاحب انطاكية . ولما مرض حنجيل اصبح رئيس نواد الجيش . وقبل خروجه من انطاكية اراد ان يأخذ رأي الجند ، فألهم هل يرغبون حالاً في محاربة كبريوقا . فكان جوابهم بالاجماع انهم يفضلون ان يموتوا في القتال على ان يموتوا جوعاً ، والموت جوعاً لا مناص منه ان طالت بهم الحالة التي هم فيها .

ومن المشاهد التي رأها ريشار بعينه وحفظها في كتابه قصة بيير بيتر رايثرفين دي كرايل Pierre Postiaus et Evervins de Creil وهما فارسان من شمالي فرنسة ، قال : لا حصل الضيق العظيم الذي ذكرناه في انطاكية افتقر بيير ولم يبق عند ايثرثن سوى حماره . فيوماً من الايام بينما كان ايثرثن في احدى الكنائس منتظماً للصلاة ، اتى رجال بيير الى سيدهم وقالوا له : سيدي نحن على رشك ان نموت جوعاً ، وما قد مضى علينا سبعة ايام ولم نذق طعم الخبز .

فاجابهم بيير : «اذهبوا ، يا اصحابي ، واقبضوا على حمار ايثرن واشوه ، فلحمه فاخر جداً وبركة الله عليكم . فذهبوا وذبحوا الحمار وطبخوا منه غذاء لذيذا . وشم رائحته ايثرن عندما رجع فالتذ بها ، وطلب حصه لياكلهما حالاً ، بعد ان هتا رفاقه بعشرهم على طعام طيب كهذا . ولكنه لما علم بان حماره قتل وطبخ وأكل ، اخذه الغضب ، فاجابه بيير : «يا اخي ، اشد ضعفا من الجوع . وغدا سنقاتل الاعدا . فان انتصرنا صنعنا اغنيا . وان انكرنا فسنتقل في سبيل الله . وفي الحالتين لا لزوم لحمارك . فمروا عن ان نتشاور ، تعال نتضرع ونطلب من الله ان يحفظنا ويحفظ جيشنا ويحقق امانينا . » فتعانت الفارسان واكلا من لحم الحمار . ثم باشرا الصلاة . . .

واسر القائد الروحي لجيش الصليبين ، وهو الاسقف ادمار ، جيوشه ان يصاروا ويصوموا ويعترفوا ويتناولوا القربان المقدس ، ويتصدقوا على الفقراء . مدة ثلاثة ايام . وفي الثامن والعشرين من شهر حزيران شرعوا بالخروج من انطاكية ، وقد حمل المطران ادمار الحربة المقدسة ، وقاد بنفسه جيوش صنجيل لان صنجيل بقي في انطاكية ليحافظ على المدينة . وكان خروج الجيوش من احد ابواب المدينة المسمى بباب البحر ، لانه اقرب الابواب لمرفأ السريديية ، وقد خرجوا من انطاكية متفرقين شرذمة وراء شرذمة كما وصفهم ريشار وانورجون المسلمون . فلو هاجمهم كبرقا في هذا الوقت لانتصر عليهم ، فان انتظاره ايام ليتكامل عددهم ، بالرغم من رأي بقة الاسراء المسلمين ، سبب انكسارده . ولما اجتمع الافرنج خارج المدينة ولى المسلمون هاربين لما كان قد علمهم به كبرقا من الامانات والاحتقار ، ثم انهزم كبرقا خوفاً . وظن الافرنج ان هربهم حيلة ، لا لاحظوا ان قسماً منهم ظل في محله لمقاومتهم ، فاعتقدوا ان القسم الآخر سار من جهة البحر لكي يعود ويلتف حولهم . فاحقروا باهاريين وتكسروا بهم ، ولم يدركوا منهم في قيد الحياة الا القليل . واخيراً احرق جنود كبرقا خيامهم وما استطاعوا حرقه من اموالهم واختفوا بين الجبال . فتم النصر للافرنج واكتبوا امراً وأحياناً وآلات حربية لا تحصى . وكانت قلعة انطاكية تد بقيت بين يدي المسلمين ، وكان المتولي عليها اسمه احمد بن مروان . فلما عاد

الافرنج الى انطاكية منجوه الامان ومن معه . فسلمهم القلعة يوم الاحد في ٥ تموز من عام ١٠٩٨ ، وخرج منها وعامله الصليبيون بلطف وانسانية واتزلوه في قصر من قصور انطاكية ، ثم ارسلوه الى حلب مع شذمة من رجالهم ليحسروه .

هكذا تم النصر للصليبيين وكانت المواقع التي جرت في سبيل انطاكية اعظم مواقع الزحف الصليبية الاولى ، كما قلنا في اول مقالنا هذا . وقد انتجت آثاراً شمرية عديدة . وما يستحق الذكر ان هذه الآثار الشمرية تولدت وانتشرت في اراضي سورية ولبنان وفلسطين ، قبل ان تُعرف في الغرب . وقد كان لافرنسي مملكة القدس اللاتينية ادب يمتاز عن ادب افرنسي فرنسة . وملحمة انطاكية التي كتبها جندي صليبي في سورية ، تحت غبار الغزوات والحروب ، بين رفاقه الذين كانوا يقاسرون الاهوال نظيره ، هي اول ملحمة بل اول اثر خالد لادب افرنسي الشرق الذي ازدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما هي اثر من اصدق واكمل الآثار التاريخية التي حفظت لنا احتلال انطاكية .

